

## الأزهر وبعثاته العلمية

للدكتور محمد البهي

—

حقاً — كما يقول صديقي للفاضل الأستاذ محمود الشرفاوي في عدد الرسالة الأخير (٣٩١) تحت عنوان «الأزهر وبعثاته العلمية» — أن الأستاذ الأكبر المراشي كان جريئاً يوم أرسل بشة «فؤاد الأول» إلى أوروبا عام ١٩٣٥ ، وأن سمادة عبدالسلام الشاذلي باشا كان جريئاً أيضاً أو أشد جرأة يوم أرسل من قبل بشة الإمام محمد عبده سنة ١٩٣١ لأنه أرسلها في وقت كان الأزهر ممثلاً في شخص شيخه السابق ضد فكرة إرسال البعث من الأزهر إلى أوروبا . ولولا لباقة الشاذلي باشا في أن أتاح لمضوي بشة الإمام محمد عبده التشرف بمقابلة جلالة الملك الراحل ، الملك فؤاد ، والاستماع إلى رغباته الصامية فيما يجب أن يكون عليه الأزهر لخلد ذكرى الإمام بشيء آخر غير بشة أزهريه توفد إلى جامعات أوروبا لتربط ثقافة الشرق الماضي بثقافة العصر الحاضر . وكان الشاذلي باشا جريئاً ، وكان الأستاذ الأكبر المراشي جريئاً كذلك في إرسال هذه البعث الأزهريه إلى أوروبا ، لأن ذلك منها اعتراف بحاجة الأزهر إلى توجيه جديد في البحث والتفكير ، وفي الوقت نفسه اعتراف بجمود الثقافة الأزهريه

ووقوفها عند حد معين لا تتجاوزه وهو ما وصل إليه المسلمون إلى القرن الخامس عشر تقريباً . والاعتراف بهاتين الحقيقتين في وقت يسيطر فيه على العقليه الأزهريه مبدأ «لم يترك الأول للأخر شيئاً ، وتسيطر فيه كذلك فكر «الكتاب» في المدرس والبحث لاشك أنه يحتاج إلى جرأة وإلى جرأة كبيرة .

وكان حقاً أيضاً أن يسأل صديقي الفاضل الشرفاوي عن إنتاجنا العلمي وأن يحاول شرح «عدم إنتاجنا» — إن وصل إلى ذلك — بما ذكره : «إلى أن نرى أثركم وإنتاجكم وتجديدكم وما حلتم في الأزهر من بيئة علمية جديدة وثقافة جديدة وحرية جديدة في البحث . سنقول إنكم لم تفيدوا شيئاً مما تعلمتم ولا تميز لكم على من لم يبعث ولم يدرس في جامعات أوروبا أو أنكم لا تجدون من أنفسكم شجاعة ولا قوة لكي تكونوا متبعين ولا مفيدين» وهذا الذي يسأل عنه الصديق سألني عنه كثير من إخواني ومعارفي في غير الليئات العلمية ، في وزارة الخارجية ؛ ولكنهم فقط لم يراهموني بما حاول أن يجيب به الأستاذ الشرفاوي . وبالرغم من ذلك كنت أشعر أنه يتردد في نفوسهم

\*\*\*

صحيح أننا لم ننتج بعد إنتاجاً جامعيًا يشتمل في تأليف يقوم للبحث فيه على الاستقلال في التفكير وعلى إبداء رأي خاص في مشكلة من مشاكل العلم الذي تخصصنا فيه ، حتى يدمج

إن الإنسان يأتي بأعمال عظيمة في صميم غايات الحياة وهو عنها غافل لا يدرك ماذا تكون نتائج عمله في مستقبله ومركزه . وإن مصانع «فورد» مثلاً تخرج في كل ثانية واحدة سيارة كاملة لهذا جبروت وملكوته إنساني واسع يفتتح أمام عيون الراصدين لحركات الابن للبكر للأرض فهذه السيارات حيوانات حديدية تولد كاملة من أصلاب للمصانع وأرحامها ولا تحبو ولا تدرج ببطء الطفولة وإنما تسير بسرعة الفكر الإنساني كما قدمنا في هذا المقال ...

وهي وأشبهها مما نتج من القحاح بين الفكر والحديد قد ملأت الأرض وأدلت دولة الخيل والبغال والإبل ، وصيرتها أشياء أثرية يوشك الناس أن يحتفظوا بها في المتاحف أو حدائق الحيوان ...

\*\*\*

في كل فدة رمل ، وقطرة ماء ، ولمة شعاع ، وخفقة نسيم ...  
كثير مدخر لمستقبل الإنسان على الأرض ...

فليعرف ذلك الدين يشكون الفقر وشح الموارد الطبيعية . أولئك الدين يشيرون الحروب من أجل الطمع والاغتناب « أن تكون أمة هي أربي من أمة » ويلبسوا قياد الإنسانية لملء الطبيعة الدين يضربون معاولهم على كل منجم في الأرض والماء والهواء والشعاع ولناخذ الحياة عريضة ؛ بالانتفاع بكل ما في الأرض ، وباستئصال جميع قوى الإنجاب والجماد والحيوان ، وباستخراج كل كامن من الثبات والركاز ، وباستئصال كل ملطن من الشعاع والماء والهواء وبتوليد كل ما يمكن أن يولد من العناصر والقوى ، وبوضع كل شيء أمام كل شيء لينشأ من الأوضاع المختلفة التي لا عد لها حيوات جديدة معقدة لا عد لها ، يترقى بها الفكر والحياة وينزدر فيضهما وترحب بها آفاق النفس ، ويظهر لنا بعدها أن الكون مليء بالأسرار وكلمات الله التي لا تنفذ .  
عبد المنعم فهوف

والغزالي هو صاحب « تهافت الفلاسفة » ؛ وهو صاحب الرأي :  
بثلاثة كتب للفلاسفة العدا . . . . .

وهجومه ضد الفلاسفة كان للحبب غير المباشر في اختلاف  
الرأى في جواز الاشتغال بالنطق - وهو فرع من الفلاسفة -  
أو عدم جواز الاشتغال به أو التردد بين الحرمة والجواز :

فإن للصلاح والنواوى حرماً وقال قوم يبنى أن يطأ  
والقنولة الشهورة للصحيحة جوازها لكامل القريحة  
فإنهاج للتعليم العالي في الأزهر وإن فرض تدريس للفلاسفة  
إلا أنها لا تتمتع بقداسة ولا احترام كما يتمتع علم آخر كعلم  
الكلام مثلاً

وكما أن مبدأ « قداسة » بعض المواد دون بعض يسود  
التعليم في الأزهر ، كذلك مبدأ « للكتاب » إذ أن « مدرس  
الموضوع » لم يخلق بعد في الأزهر وإن كان في طريق الخلق  
والتكوين . فالحقائق العلمية في مادة من المواد مصدرها كتاب  
معين بالذات ، والتكئين في الخلفانات العلمية ومشاكل البحث  
لم يزل إلى كتاب مخصوص . ولعل مبدأ الكتاب فرع عن مبدأ  
للقداسة لأنها إذا منعت لمادة من المواد قد تعداها لأمر ما ،  
إلى مؤلف بالذات فيها

وبيئة مثل هذه البيئة التقليدية لا تقبل طبعاً بسهولة نتائج  
البحث العلمى الحديث لأنها قد ترى فيها ما يجرح عاطفة عدها  
تحرص على صيانتها . وعلى صاحب البحث الجامى قبل أن يبرزه  
إلى الوجود أن يهيئ للنفوس له بالتوجيه تارة ، وبالنقاش فيما ألفتته  
وصانته حتى الآن عن النقاش تارة أخرى ، وإلا كانت نتيجة  
بمحة الجامى سلبية محضة ، وكان شأن هذا الباحث شأن للقانون  
الذى فرض مادة في منهاج الدراسة لم تهبأ لقبولها للنفوس بعد  
في الإجمال وعدم الاعتبار

وهذه التهيئة كانت - وما تزال - من مهمتنا ؛ وهى مهمة  
ليست يسيرة . كم كان شاقاً ما صادفتى من صعاب في العام الماضى  
عند عرض فلاسفة المسلمين ! فكانت نفوس الطلاب متشوقة  
أولاً وبالذات إلى سماع الحكم عليهم بالإسلام أو بالكفر . ولم  
أفلح إلا بعد جهد مضمّن في إقناعهم بالفصل بين التيم المختلفة ،  
وفى أن مهمة مؤرخ للفلاسفة الحكم على الفيلسوف من ناحية  
إنتاجه العقلى لحسب

هذا للبحث ضمن البحوث العلمية فيكمل ناحية تقص فيها  
- وذلك طبعاً غير للتأليف المدرسى ، فقد أخرجت من هذا  
النوع ثلاث مذكورات : في الفلاسفة الشرقية ، وفي الفلاسفة  
الإسلامية ، وثالثة في علم النفس العام ( بالاشتراك مع الأستاذ  
عبد العزيز عبد الحميد في هذه الأخيرة ) . - ولكن ليس عدم  
إنتاجنا الجامى راجعاً - كما يقول الأستاذ للشرقاوى - إلى أننا  
لم نقد شيئاً مما تعلمنا في أوروبا ، ولا إلى أننا لم نجد من أنفسنا  
شجاعة ولا قوة لكي نكون منتجين ولا مفيدين ، بل يرجع  
إلى حالة أخرى خارجة عن معرفتنا وشجاعتنا ؛ يرجع إلى بيئة  
الأزهر العلمية

الأزهر ينار الجامعة في أن بيئته العلمية لم تنهياً بسد  
( تمام التهيؤ ) للأبحاث العلمية الحديثة ، للأبحاث الجامية .  
لأن هذه تقوم أولاً على حرية للفند ، وهذا معناه عدم منح  
لقداسة لبعض المواد دون بعض . وثانياً على عدم التقيد  
« بالكتاب » كصدر للبحث ومقياس للحقيقة . والأزهر  
- في الواقع - يسير في أبعائه على منح للقداسة لبعض المواد  
دون بعض - وإن كان بينها شديد التشبه من وجهة للبحث -  
وعلى التعلق بمبدأ للكتاب . نعم مناهج للتعليم لا تنص على كليهما  
ولكنهما من الأمور المتوارثة التى أصبح لها حرمة المبادئ  
السامية . وليست العبرة في ملاحظة الظواهر بما يقوله المتهاج ،  
ولكن بما تبيته للنفوس

فإننا يفرض منهاج للتعليم في الأزهر تدريس الفلاسفة ،  
وأزيد من هذا يجعلها مادة أساسية في كلية أصول الدين ؛  
ولكن الفلاسفة في نظر كثير من الأزهريين ما زال منها  
« للفساد » ، وهو أكثرها ، و « للصحيح » ، وهو أقلها .  
وما زال كثير منهم يخفى في نفسه الضئيلة للفلاسفة وللفلاسفة  
ويضعها في صرتية دنيا عن عالم الكلام ، مع أن هذا الأخير  
يشارك الفلاسفة الإلهية في الموضوع وفي اللغاية ، وهى محاولة  
تعميد الإله أو مبدأ الوجود وعلاقته بالكون وبخاصة بالإنسان .  
ومع أن الفلاسفة الإغريقية التى نقلت إلى المسلمين كانت سبب  
تراثه ونعائه . هذه للفرقة أثر متوارث عن الغزالي ؛ فكانه « إحياء  
علوم الدين » قد أصبح منذ للقرن اللثانى عشر إلى الآن صاحب  
الكلمة في للتوجيه الدينى وفي تعميد علاقة للبحث العقلى بالدين .